

إشكالية الفضاء العمومي والتلفزيون في الدول العربية

أ.د/لعياضي نصر الدين (الإمارات)

(الشيء الأكثر صعوبة في العالم هو أن نفكر ونقول ما يقوله كل الناس دون تفكير)

Emile Chartier dit Alain

تملك المفاهيم بعدين أساسيين متداخلين: البعد التاريخي والدلالي. هذا التداخل يؤكد أن المفهوم كائن فكري يولد بفعل ظروف معينة تلونه بمحتويات تصويرية محددة، تتجدد وتتغير باستخدامه المتبدل حسب السياقات التاريخية والمنطلقات الفلسفية. وكل محاولة للاقتراب من مضمون أي مفهوم يتطلب الاستعانة بمفاهيم أخرى، وهذا ما نلاحظه بشكل دقيق في مصطلح " الفضاء العمومي".

إن الإمساك بمضمون أو بمضامين أي مفهوم يتطلب المعرفة بتاريخه. فعلى الصعيد التاريخي يمكن القول أن مفهوم الفضاء العمومي يعود إلى الفيلسوف الألماني كانط. و يقصد به الحيز الفيزيائي: شارع، وساحة عامة، وسوق، وكنيسة، ومدرسة، وجامعة، أي المكان الذي يمكن أن نلتقي فيه بالناس. ومنذ القرن 16 و 17 أكتسي الفضاء العمومي بعدا رمزيا، وهذا بفضل الفرز الحاصل بين المقدس والوضعي أو الزمني، و الاعتراف بحقوق الفرد إزاء السلطة المطلقة. وتشكل تاريخيا أثناء فلسفة الأنوار كحلقة وصل بين المجتمع المدني والدولة، وتبلور أكثر بفضل بروز صحافة الرأي وتزايد الدور النقدي الذي تقوم به كما سنوضح ذلك لاحقا.

لكن بالنظر إلى كثرة استخدام مفهوم " الفضاء العمومي" في كل مقام، يبدو أنه أصبح بمثابة كيس يختلف شكله ومحتواه بما يُحشى به! وهكذا وقع ضحية نجاحه، كما يؤكد الباحث ألن جيرو في أطروحة دكتوراه التي ناقشها في السنة 2000 تحت عنوان: تحولات الفضاء العمومي والبناء الإعلامي للرأي العام.

Les mutations de l'espace public et la construction médiatique de l'opinion publique

تعريف الفضاء العام:

تتطلب مختلف الاجتهادات في تعريف الفضاء العمومي مما حدده الفيلسوف الألماني يورغن هبرماس Jürgen Habermas في مؤلفه: (الفضاء العام: أركيولوجية الإعلان كبعد تأسيسي للمجتمع البرجوازي) الذي قدمه كرسالة دكتوراه تحت قيادة أحد رواد مدرسة فرانكفورت: تيدور أدورنو Theodor W. Adorno. ونشره في كتاب سنة 1962. يعرف هذا الفيلسوف الفضاء العمومي في هذا الكتاب بأنه: فضاء للتوسط يقوم فيه الأشخاص الخواص بالاستخدام العمومي للعقل من أجل بناء توافق سياسي. (1) أي أن الفضاء العام هو جملة من الأشخاص المجتمعين لمناقشة القضايا المرتبطة بالشأن العام. لقد تشكل الفضاء العام في أوروبا وفق هذا الرؤية بعد بروز "العقد الاجتماعي" كمنظم للحياة الاجتماعية، و كقوة موازية للحكم المطلق بهدف التوسط بين الدولة والمجتمع المدني".

هذا التعريف يضعنا أمام عدة محددات:

- 1- ما المقصود بالعمومي * Public ؟ ظهرت هذه الكلمة ذات الأصل اللاتيني في القرن 14 و "تعني لكل الناس". أي كمقابل لما هو "خاص"، وللدلالة على ما يجمع الجميع. لكن مفهوم العام يحيلنا، أيضا، إلى جانب آخر اشتقت منه، وهو: rendre public والذي يعني الإعلان والنشر، وهذا ما نتطرق إليه في المحدد الرابع.
- 2 - إن الوسيلة التي تتوسط المجتمع المدني والدولة ليس الإطار في حد ذاته، بل محتوى ما يتداول داخل هذا الإطار: أي الاستخدام العام للعقل والحجة. وهذا ما يساعدنا في تشخيص بعض الإشكاليات المرتبطة بعلاقة وسائل الإعلام بالفضاء العمومي في زمن تطورت فيه العدة التكنولوجية الحديثة وتوَّرت التصورات لماهية الإعلام والاتصال إلى درجة أن الاتصال تقدم على الإعلام، أو بالأحرى تقهقر الإعلام أمام الصعود الاستعراضي للاتصال.
- 3 سخائية النقاش: إن الفضاء العمومي يقوم على مبدأ النقاش الذي يتداول الشأن العام. وهذا ما يقتضي السمو باستخدام الحجة لتجاوز المصالح الفئوية، ومصالح المجموعات، ومنطق الجماعات.
- 4 لا يمكن الحديث عن وجود فضاء عمومي بدون توفر الشرط الأساسي والمتمثل في الحرية: حرية الأفراد في الاجتماع واللقاء، وحرية التعبير والفكر، وحرية تبادل المعلومات والآراء المختلفة. فممارسة الرقابة على الأفكار وحجبها أو حظرها يؤثر سلبا على حجم النقاش الذي يجري وموضوعه.
- 5 يترجم الباحث جون ميشال سولان Jean-Michel Salaün (1987) مبدأ النشر والإعلان بالحق في الإعلام. (2) وهذا المفهوم أصبح أكثر تداولاً بدءاً من المنتصف الثاني من القرن العشرين، و يقتضي رفع السرية على الأمور المرتبطة بالشأن العام، وجعل تسيير المرافق العامة والشأن العام أكثر شفافية، بحيث يمكن لأي كان أن يطلع عليها. وبهذا يسجل الفضاء العمومي قطيعة مع ممارسات السلطة المطلقة والنظم الديكتاتورية التي تتميز بطابعها السري المبالغ فيه، والذي يشمل مختلف جوانب الحياة العمومية. بمعنى أن النقاش حول القضايا العمومية التي تهم أكبر قطاع واسع من الناس لا يجب

أن يظل محاطا بالسرية وبالتالي يحرم كثير من الناس من إدراك ماذا جرى في هذا النقاش أو الحجج المعارضة التي عرضت فيه حتى يمكن الانخراط فيه أو اتخاذ موقف منه.

- 6 - إن فاعلية هذا التوسط تكمن في قواعد الاستخدام العام للحجة والتي تفترض المساواة بين الأشخاص في النقاش، وهذا يقتضي عدم الإقصاء (عدم إقصاء مجموعة بشرية محددة بعينها لأفكارها السياسية أو لتوجهها العقائدي أو لموقعها الاجتماعي).
لكن تجسيد عدم الإقصاء هذا لا يقف عند حد امتلاك إرادة سياسية تسمح للجميع بالمشاركة في النقاش العام، بل يتطلب أيضا من الجميع امتلاك جملة من الكفاءات " الذاتية" (3) التي تسمح لهم بخوض غمار النقاش العام. وهنا تكمن إحدى مفاصل " الفضاء العام" وتجسيده في الحياة الديمقراطية.
- 7 - إن مبدأ النقاش الذي يتداول الشأن العام بفضل النشر أو الإعلان يكون مآله تشكيل الرأي العام الذي يعبر عن توافق الآراء حول الشأن العام. (4)

8 - إن الفضاء العمومي هو مكان لإعطاء شرعية للسياسي *de légitimation du politique* ، ومسرحة لبروز ما هو سياسي (5) فهو مجال لإعطاء شرعية للديمقراطية المجسدة في حرية التعبير وحرية إبداء الرأي وتقديم الحجة.

9- يأخذ الفضاء العمومي صيغة فيزيائية (شارع، حي) ومؤسساتية (المدرسة، الجامعة، المسجد، البرلمان)، كما ذكرنا آنفا، أو صيغة تواصلية (منتديات الانترنت، التلفزيون، الإذاعة، والصحافة المكتوبة) لفصل بين بعدين: البعد العملي والنظري، فإن البعض يقترح تسمية البعد الثاني بالمنتدى *Forum (6)* . يتشكل هذا البعد عبر ثلاثة شروط أساسية وهي: التوسط *Mediation*، والاتصال *Communication* والمشاركة *Participation*، وهذا ما يعطي له امتدادا امبريقيا. إن التفكير في هذه الشروط يجرنا إلى التساؤل عن اللحمة الثقافية والاجتماعية التي يشكل فيها الفضاء العام في بعده النظري- الرمزي. بمعنى هل توجد نقاط تمفصل بين الفضاء العمومي والفضاء الثقافي؟ وما العلاقة بين الفضاء الاتصالي والفضاء العمومي؟ وما العلاقة بين الفضاء السياسي والفضاء العمومي؟ إن الإجابة على كل هذه الأسئلة تساعدنا في استبصار ماهية الفضاء العمومي وفاعليته في المجتمع، ونكشف عن روافده.

إن الفضاء العمومي إطار لإدارة التناقضات بين المصالح، وليس مجالا للمواجهة والتناحر الذي يؤدي إلى التشرذم والتفكك، وحتى يكون كذلك يجب أن يشارك الجميع في نفس الفضاء الاتصالي. فالتفكك لا يحدث لغياب آليات إدارة تناقض المصالح فقط، بل يقع لغياب المرجعية (مجموعة القيم) التي توطن الفضاء الاتصالي، و تتبدد سوء التفاهم. (7)

لعل المرجعيات القيمية ضرورية في تشخيص الفضاء العمومي، وذلك لأن القيم المشتركة تساعد الأشخاص في استيعاب الأسئلة ذات العلاقة بالمصلحة العامة. فالحديث عن هذه المرجعية يستحضر العامل الثقافي في تماسك هذا الفضاء.

إن دور العامل الثقافي في الفضاء العمومي يتجلى عبر أفقين:

■ إن الثقافة المشتركة (وليس الوحيدة) هي التي تسمح بالتبادل بين الأشخاص، والثقافة المدنية هي التي تسمح بوجود نقاش على أكثر من صعيد حول المصلحة العامة(8)

■ لقد تشكل الفضاء العمومي بدءاً من القرن السابع العاشر بالاستناد إلى الفعل الثقافي وتجلي في الصالونات والنادي الأدبية، والصحف والكتب. فالنقاش الثقافي حدد المبادئ التنظيمية والتسييرية لقواعد النقاش العام قبل أن يمتد إلى المجال السياسي، وهذا في كنف بروز سوق المواد الثقافية الموجهة لتلبية حاجيات الفئات الوسطى.

تكاد العلاقة بين الفضاء العمومي والاتصال العمومي أن تكون تحصيل حاصل. وذلك للأسباب التالية:

■ لا يوجد تبادل ونقاش بدون اتصال. وعلى هذا الأساس يمكن القول أن الفضاء الاتصالي يمثل الركيزة الأساسية للفضاء العمومي لأن هذا الأخير يشكل فضاء للوساطة الرمزية حول القضايا السياسية، كما ذكرنا أنفاً.

■ إن الفضاء العمومي والفضاء الإعلامي يتقاطعان جزئياً لكنهما يظلان حقلان رمزيان منفصلان عن بعضهما، وإن كان كلاهما مغروس في الفضاء الاتصالي. لكن مع التطور التكنولوجي وإعادة هيكلة المجتمعات الصناعية، تطور الاتصال ونما وأصبح يفضل الإغراء أكثر من تقديم الحجة أو المحاجة (9)

لكن تظل العلاقة بين الاتصال الجماهيري والفضاء العمومي مثار العديد من التساؤلات حول تحولات وسائل الاتصال الجماهيري وتأثيرها على الفضاء العمومي.

إن الطابع السياسي للفضاء العمومي لا يظهر من خلال التعبير المعمم والشائع الذي ينص على أن كل شيء سياسي، بل يتجلى عبر الشأن العام الذي يضفي عليه الطابع السياسي. لذا رأى الكثيرون ضرورة استخدام أسماء مختلفة للتمييز بين الظواهر الديمقراطية، و الفصل بين الفضاء المشترك، و العمومي، والسياسي، حتى لا يختصر السياسي في الفضاء العمومي (10)

ملاحظات حول أفاق تطور الفضاء العمومي.

إن الإسهامات التي تلت الكتاب المرجعي المذكور أعلاه لم ترتكز على نقد مفهوم الفضاء العمومي، بعد أربعين سنة من صياغته، بل اندرجت ضمن تشخيص التغيرات البنيوية في الفضاء العمومي .

فالفيلسوف الألماني يرغن هيرماس ذاته يعترف في المقدمة التي وضعها لطبعة الفرنسية لمؤلفه المذكور أنه افترض في تفاؤله بسلوك الجمهور المتعدد والمتباين على مختلف الأصعدة، وبمقدرة هذا الجمهور على المقاومة، وطاقاته النقدية. (11)

إن الزوايا التي انطلق منها نقد مفهوم الفضاء العمومي تتمثل فيما يلي:

1 ثنائية العام- الخاص:

Pierre إذا كان مفهوم الفضاء العمومي يرتكز على ما هو عمومي، فإن الباحثان: Serge Proulx (1995) Chambat (1996) يريان أنه من الصعوبة بمكان التمييز بين ما هو خاص وعمومي في ظل التطور التكنولوجي الرهيب في وسائل الاتصال. فالفنوتات التلفزيونية، على سبيل المثال، باعتبارها وسيلة موجهة للجميع بدون استثناء أصبحت ترتكز على برامج مستلهمة من الحياة الخاصة في حميميتها، ومن انسداد علاقاتها الشخصية، كما هو الأمر بالنسبة للعديد من برامج تلفزيون الحياة Reality-tv .

إن صعوبة تحديد الفضاء العمومي بالاستعانة بكل ما هو عمومي لا يعود إلى " انهيار الجدار" بين العمومي و الخاص بفعل التطور التكنولوجي المذكور أعلاه، فقط، بل يرجع، أيضا، إلى صعوبة تحديد ما هو خاص وما هو عمومي. فالباحث فريز Fraser يبين أن بعض الأمور تبدو من أول وهلة أنها خاصة، مثل: العنف الممارس ضد المرأة في البيت. فهذا الموضوع الذي يعتبر مسألة شخصية تتعلق بكل فرد تصبح موضوعا عاما، بقصد إصدار قانون خاص بحماية المرأة (12). وهكذا يستخلص الباحث Eric Dacheux بأن هذا التداخل بين العام والخاص ضروريا لأنه لا يمكن التكهن بالمواضيع العامة بدون الديناميكية الثقافية والسياسية والاجتماعية التي تدفع إلى تحويل المواضيع الخاصة إلى عامة.

2 - الفضاء العمومي بين التصور المثالي والتجسيد العملي. لقد اتفق العديد من الباحثين على أن مفهوم الفضاء العمومي، كما قدمه الفيلسوف الألماني هيرماس، يتضمن نوعا من الرؤية المثالية للعصر الذهبي: عصر الأنوار. فالباحثان: Peter Uwe Hohendahl (1992) Michael Schudson (1992) يريان أن فكرة الفضاء العمومي الذي تنظمه العدالة والمساواة وتبادل الآراء والحجج وعقلانية الأفكار المتبادلة لا ينطبق على أي واقع تاريخي (13)

3- الفضاء العمومي والتوسط: إن الفضاء العمومي باعتباره فضاء للتوسط أو الوساطة Mediation يبدو غير ممكن بدون الفصل بين نظام الدولة، والمجتمع المدني، والنظام الاقتصادي . فالفضاء العمومي يتفاعل مع هذه الفضاءات الثلاثة، فهو في آن واحد عامل للتجانس والتميز الاجتماعي. لكن هذا الفصل المتصور يصعب التماسه في الواقع العملي. فإضافة إلى ضرورة التزام الحذر في الحديث عن استقلالية مؤسسات المجتمع المدني عن منظومة الدولة ودوائرها في العديد من الدول، فإن ما يميز العالم المعاصر يتمثل، حسب الباحث Levy Pierre، في كونه أصبح يتسم بالتجارة، فالكل يتاجر، بمعنى أنه يبيع ويشترى الخدمات والسلع، فالكل مهتم بتجارة كل شيء : الجنس، الزواج، الولادة، الصحة، الجمال، الهوية، المعرفة، العلاقات، الأفكار (14). فالعالم التجاري يتغلغل في العديد من الفضاءات. وربما هذا الأمر هو الذي شكل المحور الفيصلي في نقد دور وسائل الإعلام في صياغة الفضاء العمومي، كما سنشرح ذلك لاحقا.

4 - رهانات العنن : إن ما هو علني هو بالضرورة سياسي حسب الفلاسفة اليونان. فإذا كان القاسم المشترك بين الرأي العام والسياسة يتمثل في العلنية، فمن المفيد الإشارة إلى مجموعة من الملاحظات الضرورية.

إن كل ما يتعلق بالشأن العام هو بالضرورة سياسي. لكن الشأن العام لا يتشكل من المواضيع التي تصنفها الدراسات العلمية بأنها سياسية. فيمكن أن تكون المواضيع المتعلقة بمختلف مناحي الحياة الاجتماعية التي تمس قطاعا كبيرا من الناس فتندرج ضمن قضايا ذات الشأن العام. إن تسييس كل الأمور هو الذي أفرغ الفضاء العمومي من مكوناته وأثر سلبا على دوره كما سنلاحظ لاحقا.

5- الفضاء العمومي في صيغة الفرد والجمع: يمكن أن نوزع صعوبة مفهوم الرأي العام إلى الاعتقاد بوجوده في صيغة موحدة وواحدة، بينما تحيلنا الملاحظة اليومية إلى وجود عدة فضاءات عمومية جزئية أو وجود فضاء عمومي في صيغة الجمع في المجتمع الواحد. فتاريخيا، بجانب الفضاء العمومي البرجوازي، وجد فضاء عمومي شعبي أو فضاءات عمومية شعبية تجسدت على أسس مؤسساتية (جمعيات ونقابات) تركز على قيم التضامن والتعاون. وهذا خلافا للفضاء العمومي الذي تشكل في المقاهي الأدبية تسييره العقلانية الفردانية، كما يؤكد الباحثان Tilly (1986) و Garnham (1992) (15)

فهذه التعددية هي التي تعطي حيوية للنقاش العمومي في المجتمع وتقلل من عوامل الامتثال والاستبداء أو إجماع الواجهة.

على ضوء الحديث عن الفضاء العمومي بصيغة الجمع، يرى البعض بأن شبكة الانترنت تشكل الوعاء الذي يستوعب أكثر عدد من الفضاءات العمومية المجزأة سواء على مستوى الدولة أو على المستوى الإقليمي أو الدولي.

إن مناقشة هذا الشكل من الالتقاء وتبادل الآراء والأفكار والمعلومات والانطباعات سواء في المنتديات الإلكترونية Forums، أو في حلقات الدردشة الإلكترونية Chat تكشف عن جملة من عوائق النقاش في شبكة الانترنت التي تغيب الجدل وتبادل الأفكار . من هذه العوائق يمكن أن نذكر: إخفاء الهوية الحقيقية أو الحديث من خلال انتحال شخصية ومهن أخرى، المقدرة على تضليل النقاش أو توقيفه في أي لحظة، وجود محكم Moderator يملك الحق في طرد من يشاء من الحوار أو النقاش (16) هذا إضافة إلى أن أهداف بعض ملتقيات الدردشة ليس النقاش وإحياء الجدل الغائب أو المغيب في المجتمع لأسباب مختلفة. كما أن بعضها يتطلب الاشتراك غير المجاني لتمتع بصفة العضو، لطرح قضايا مرتبطة بالشأن الخاص.

التلفزيون والفضاء العمومي

يرى الباحث الفرنسي Dominique wolton (1991) بأن الفضاء العمومي مهيكّل بشكل قوي من طرف وسائل الإعلام. ويرى الباحث الفرنسي Louis Quere (1982) بأن هناك نوع من القرابة المرفولوجية بين الفضاء العمومي ووسائل الإعلام، دون أن تكون بينهما علاقات جينية (17).

لكن منذ متى ظهرت هذه العلاقة المرفولوجية ؟

يعتقد الفيلسوف الألماني أن التحليل النقدي، في منتصف القرن 17، وجد مكانته في الصحافة بعد بروز إحدى الأنواع الأساسية التي تعتبر رافدا للرأي: المقال. ففي الثلث الأخير من القرن ذاته ظهرت المجالات التي لا تنقل الأخبار فقط، بل تتضمن المقالات النقدية (18)

لكن هذا الفيلسوف يرى أنه في منتصف القرن الثامن عشر تغير واقع صحافة الرأي حيث تقهر دورها النقدي أمام تعاضم دورها التجاري (إن تمكين الجماهير من الولوج إلى المجال العمومي La sphere publique بفضل الصحافة التجارية الكبرى (ذات التوزيع الواسع) تم بإقصاء المقالات الافتتاحية السياسية في هذه الصحافة وهكذا سلب الطابع السياسي من هذا المجال العمومي. (19) إن غلبة الطابع التجاري على نشاط الصحافة قد أدى إلى توري استخدام العقل والحجة في الفضاء العمومي.

لكن الفيلسوف الألماني يميز بين دور الصحافة التاريخي وإسهامها في تنشيط الفضاء العمومي من خلال النقاش العقلاني الذي تتيحه وبين الوسائل السمعية- البصرية ممثلة في الإذاعة والسينما والتلفزيون. حيث يعتقد أن هذه الوسائل تقضي جذريا على المسافة التي تفصل بين القارئ والنص المطبوع الذي يقرأه. إن المسافة أو الهامش الذي يمكن هذا القارئ من استيعاب ما يقرأ ذي طابع خاص، ويشكل شرطا ضروريا للفضاء العمومي حيث يسمح بالتبادل الناضج حول النص المقروء. (20)

بصفة عامة، أن تلفزيون الستينات يختلف عن تلفزيون الألفية الحالية، والسر في الاختلاف لا يكمن فقط في العوامل المرتبطة بالتغيير الداخلي الذي تعيشه بنيته الاقتصادية والتقنية والسوسيولوجية، بل يرتبط أكثر بالعوامل الخارجية المؤثرة في نشاطها، نذكر منها تطور الاتصال في المجتمع. لقد تغيرت طبيعة هذا التلفزيون حيث أصبح قائما على الإغراء والافتتان أكثر من الإقناع والمحاجة؛ وتغير الخطاب السياسي الذي أصبح أكثر إرهافا " لحفيف" إحصائيات استطلاع الرأي، وأكثر قربا من تقنيات الإعلان والإشهار. هذا أمام تغير علاقة المواطنين بالسياسة والتي عبر عنها تناقص على صناديق الانتخابات والاقتراع على القضايا ذات الأهمية المصيرية، وانفلات الصراع عن أطره الكلاسيكية (الأحزاب

السياسية، النقابات) التي تكلس بعضها في أطروحاته وطريقة مقارنته ونضاله. هذه العوامل كلها التي لخصناها بشكل مكثف تدخلت، بدورها، في التغيرات التي شهدتها التلفزيون.

إن التزايد الرهيب في عدد القنوات التلفزيونية بفضل الانتقال السريع من التكنولوجية التماثلية إلى التكنولوجية الرقمية يجري في ظل جو من المنافسة غير المسبوقة المتممة بتراجع صحافة الرأي، و التقلص التدريجي لحجم البرامج التلفزيونية ذات المحتوى السياسي، خاصة تلك المرتبطة بالنقاش والمواجهة الإيديولوجية.

يرى الباحثان الفرنسيان Bernard Miege برنار ميغوييف دو لاهاي Yves de la haye بأن وسائل الإعلام السمعية البصرية التي أوغلت في الترفيه والتسلية قد قللت من حضور الإعلام أو أنها عملت على " ترفيه" الإعلام أو تسليته. هذه الحقيقة هي التي تؤكد انسحاب النقاش والجدل الذي يتكئ على الفكر والعقل والحجة وانحصاره. ويذهبان إلى التأكيد بأن وسائل الإعلام السمعية البصرية أصبحت تعمل على إقامة " العلاقة العامة المعمة" "Relation Publique généralisées" التي تشدد على المواضيع التوافقية في كل ميادين الحياة الاجتماعية وتسعى إلى " اختلاق" انخراط فيها. إنها تتوجه إلى الفرد- المستهلك، و المجموعات، والجمهور (21)

يمكن أن ندرك قيمة هذه الفكرة المحورية في ظل تزايد سطوة " مديريةية الإعلام والاتصال" في مختلف المؤسسات المعاصرة التي لا تقدم إعلاما عن نشاط هذه المؤسسات بقدر ما تقيم اتصالا مبنيا على هاجس أساسي يتمثل في تسويق صورة المؤسسة. فالعديد من المؤسسات الإعلامية تكتفي بإعادة إنتاج ما يعده مدراء العلاقات العامة والإعلام في هذه المؤسسات وذلك نتيجة لضيق الوقت والسرعة في نقل الأخبار التي أجبته المنافسة، أو لشح الموارد المالية والبشرية أو للرجبة في توفير الأموال والجهد، أو كسل الموظفين وعدم احترافيتهم.

يشدد عالم الاجتماع بيار بودرديو من جهته على مفهوم آخر لتشخيص انحراف وسائل الإعلام. إنه مفهوم " الدورة الدائرية للأخبار والمعلومات"، (22) إذا يلاحظ أن المواد التي تقدمها وسائل الإعلام المختلفة تكاد تكون متجانسة حيث تتداول الصحافة والإذاعة والتلفزيون المواضيع ذاتها، والسبب يعود في رأيه إلى عاملين، وهما:

- يقرأ الصحفيون نفس الصحف، ويسمعون المحطات الإذاعية ذاتها، ويشاهدون القنوات التلفزيونية نفسها، وذلك للإطلاع على المواضيع التي تناولها منافسهم.
- لا ينزل الصحفيون كثيرا إلى الميدان بحثا عن مصادر الأخبار وتقديم مادة إعلامية قائمة على الربورتاج. تؤكد بعض الدراسات الحديثة أن عدد الصحفيين الذي ينجزون مهامهم الصحفية دون أن ينفصلوا عن أجهزة الكمبيوتر في قاعة التحرير!

ويستنتج من هذه التوصيف للواقع بأن وسائل الإعلام تؤدي إلى تسيج الفهم للأحداث والظواهر، وإلى نوع من الانغلاق الذهني .

إن دلالة المفهومين: (العلاقات العامة المعمة، أو الدورة الدائرية للأخبار والمعلومات" تؤكد ما ذهب إليه الفيلسوف الألماني عن تراجع وسائل الإعلام عن دورها النقدي والنقاشي. ويعزز ما لاحظته عالم الاجتماع جون- ماري شرو عن تراجع المفهوم المدني للإعلام، دون اختفائه، هذا المفهوم المؤسس للديمقراطية الذي يكون فيه الصحفيون مواطنين بواسطة نقاش الأفكار، وبيداغوجية الأحداث، والكشف عن الرهانات الأساسية (23)

إن التوجه الحالي نحو تسليع الإعلام والثقافة بفعل تزايد إسهام الإعلان في تمويل وسائل الإعلام من جهة، ورفع يد الدولة عن وسائل الإعلام خاصة السمعية-البصرية في ظل عولمة الإعلام والثقافة من جهة أخرى، لا يشكل النقطة الوحيدة التي جذبت انتباه الباحثين من مختلف المشارب وشجعهم على التأكيد عن تراجع دور وسائل الإعلام في بلورة الفضاء العمومي. لعل جنوح التلفزيون نحو المزيد من الترفيه شكل حجر الأساس للنقد الهيرماسي لوسائل الإعلام ونشاطاتها. وشكل أيضا إحدى المآخذ التي سجلت على هذا النقد. فالباحث نيكولا غرنهام يتساءل عن الفصل اللفظ بين الإعلام والترفيه و النظرة الانتقاصية للترفيه والتسلية مشيرا إلى أن الأفلام والمسلسلات التلفزيونية، واللقطات الإعلانية تشكل كلها روافد مهمة في تشكيل الرأي العام (24) على اعتبار أن الرأي العام ليس ظاهرة عقلانية في كل الحالات. توجد عدة نقاط شكلت منطلقا لنقد دور وسائل الإعلام في هذه البلورة، نذكر منها ما يلي:

1- إذا كانت الحرية والديمقراطية شرطين أساسيين في تشكيل الفضاء العمومي، فإن دور التلفزيون في إحداث ديناميكية في الفضاء العمومي تتضاءل في ظل غياب الظروف الضرورية والموضوعية التي تمكن المشاهد- المواطن من بناء علاقات مستقلة تتيح له المجال لشذ رؤيته للواقع وتقديم آراءه حول ما يشاهد.

يبدو أن هامش وجود هذه الظروف ضيقا أمام التطور التكنولوجي الذي استطاع أن يخلق بديلا إعلاميا للواقع الموضوعي والذي يحفز على التساؤل عن الحقيقة التي يقول عنها Ignacio Ramonet : (إن الحقيقة التي يعتد بها في محيطنا الفكري هي الحقيقة الإعلامية، خاصة وأن الجمهور لا يملك أي وسيلة للتحري في الإعلام سوى وسائل الإعلام التي تشترك كلها في تكرار نفس المادة الإعلامية). (25)

2 - يوجد توجه يغالي في تأثير وسائل الإعلام، خاصة التلفزيون، بصرف النظر عن طبيعته: تأثير إيجابي (مستتير) أو سلبي (تضليلي)، وذلك أن الدراسات الميدانية المختلفة التي جرت خلال فترة

الثمانينات ومطلع التسعينيات من القرن الماضي والتي قام بها الباحثون Stuart Hall ، KatzLiebes ، lean Ang ، تؤكد بأن مشاهدي التلفزيون ليسوا خامدين ومغربين كما تصورهم نظريات التأثير الآلي التي تطابق بين التعرض لبرامج التلفزيون والتأثر بها. فحتى وإن كان المشاهد لا يتمتع بحس نقدي فإنه يتلقى البرامج التلفزيونية عبر مجموعة من المرشحات أو المصفاة السياسية والثقافية والاجتماعية والنفسية، أي أن تفاعل المشاهد مع ما يشاهده على شاشة التلفزيون تتحكم فيه جملة من العوامل، منها على وجه الخصوص: مرجعياته الثقافية وتجربته الاجتماعية والعاطفية التي تدون أو تعيد فك مدونة المادة الإعلامية والثقافية. هل يعنى هذا أن هذه المصفاة تزود المشاهد بمناعة ضد ما تمارسه القنوات التلفزيونية من تضليل وتلاعب بالحقائق والمشاعر؟ للإجابة على هذا السؤال، يمكن القول أنه لا توجد حصانة في المطلق أمام تأثير في المطلق، حيث يتمتع المشاهد بهامش من النقد والتأويل لما يشاهده في الشاشة الصغيرة.

3- إن الحديث عن تراجع النقاش الحيوي والعقلاني حول القضايا المرتبطة بالشأن العام في التلفزيون يبرز جانبا فقط من مسألة النقاش ويخفى تلك النظرة الطوباوية التي تقر بالمساواة والتعادل بين الأشخاص المنتمين لفئات متباينة اجتماعيا ومعرفيا وغير متكافئين في التعرض للإعلام. إن الوهم بالنقاش الحر والديمقراطي الذي لا يحتكم سوى إلى استعمال الحجة والحجة المضادة في التلفزيون قد كشفه أكثر من مهني. فمدير جريدة لوموند دبلوماسيتيك Ignacio Ramonet يبدد هذا الوهم في الفضاء الإعلامي الفرنسي قائلا: (هناك مجموعة صغيرة من الصحافيين دائمي الحضور تفرض تعريفا للإعلام- سلعة على مهنة تعاني من الهشاشة أكثر فأكثر خوفا من البطالة. انهم يخدمون مصالح أسياد العالم. إنهم كلاب الحراسة الجدد) (26)

4- يملك التلفزيون قوة إيحائية رهيبية وإيهام خطير بتمثيل أكبر عدد من الناس . فالحقيقة الإعلامية التي تحدثنا عنها أعلاه تبرز عبر الجرائد المتلفزة والحوار المتلفز والمنوعات التلفزيونية توحى بالانطباق بالتوافق consensus والتواطؤ بين مذيعي التلفزيون، والجمهور العيني في الأستوديو، وجمهور المشاهدين.(تؤكد هذه البرامج شرعية العدد، الجماهير، الشعب، وباسم هذا العنوان تزعم أنها تجسد الديمقراطية التلفزيونية، وتمثل ضربا من السيادة التلفزيونية على كل ما يقال وكل ما يجري في البرمجة التلفزيونية (...). فهذه البرامج ليست رأيا عاما، وقوة العدد ليست سوى مجموعة الذين يشاهدون هذه القناة أو هذا البرنامج لمدة معينة: خمس دقائق؟ عشرين دقيقة؟) (27)

5- في هيمنته على الحياة الخاصة المعاصرة يظل التلفزيون من أول المصادر التي تسمح بالإطلاع على الأحداث الجارية على الصعيد المحلي والدولي لكنه لا يشكل الحامل الأساسي للإعلام السياسي العقلاني. فالمنطق الجمالي والاستعراضي يغالب، ويتجاوز المنطق التفسيري العقلاني للأحداث.

فالفرجة، وتوليد الانطباعات تكاد تطغى على المعلومات والآراء الكامنة في ثنايا الصور المتدفقة والتي تضمحل بسرعة فائقة تاركة المجال لغيرها من الصور.

التلفزيون والفضاء العمومي في الوطن العربي.

من خلال المفاهيم المعاصرة المقدمة للفضاء العمومي في البيئة العربية الإسلامية يبدو أنه يفتقد أرضية تاريخية تؤسسه. فمحاولات زرعه في السياق الاجتماعي والسياسي الذي تشهده الدول العربية تزايد مع الحديث عن الإصلاح الشامل على الصعيد الوطني والدولي، و ارتفاع الأصوات المطالبة به.

فتاريخيا، يمكن القول أن الفضاء العمومي كحيز فيزيائي - مادي قد وجد تجسيده في المساجد، و" الزوايا" و" الكتاب" والمجالس الأدبية والثقافية، والنوادي الثقافية، والصحف والمجلات العربية التي تميزت بسمتها الأدبية- الثقافية- الوعظية. لكن أمام توسع هيمنة الاستعمار وتزايد بطشه تسيست الكثير من هذه الأطر. ولم تقم بدور الوسيط بين المجتمع والدولة الدخيلة " الاستعمارية"، بل تحولت تدريجيا إلى أطر للنضال لتقويض أسس هذه الدولة ومحوها من الوجود. وأن بناء الدولة الوطنية في بدايتها كانت تتماهي مع المجتمع نظرا للمهام الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والتعليمية التي حددتها لنفسها، وشرعت في تجسيدها، والتي كانت تلقى رضا مختلف الشرائح الاجتماعية والثقافية ومساندتها. لذا نلاحظ أن الصحافة في الدول التي خرجت من رقة الاستعمار قد انفردت بطابعها التجديدي والتعبوي الذي استبعد النقاش والجدل، بعد استبعاد التعددية السياسية اعتقادا بأنها تجافي الوحدة الوطنية وتؤدي إلى تقسيم وتفتيت وحدة الأمة والدولة.

إن الذين ينطلقون في رؤيتهم للفضاء العمومي من زاوية ارتباطه بالمجتمع المدني يؤكدون غياب هذه الأرضية التاريخية في الدول العربية.

فالمجتمع المدني في الفكر الأوربي بلغاته المختلفة يتضمن مفهوم CIVIL الذي يدل على التحضر الذي يُفهم على ضوء ما يعارضه من مفاهيم، مثل : الديني والعسكري. وقد عرف المجتمع المدني كما يلي: (إنه مجمل الهياكل التنظيمية التي يخدم أعضاؤها المصلحة العامة بواسطة مسار ديمقراطي يستند إلى خطاب التوافق، وتقوم بدور الوسيط بين السلطات السياسية والمواطنين.) (28)

بينما يرى بعض المفكرين بأن المجتمع المدني في اللغة العربية يحيل إلى المدينة أو الحاضرة و لا يعكس التجربة التي عاشتها أوروبا في القرنين الثامن والتاسع عشر، بل يحيل إلى ما يقابلها لغويا: المجتمع البدوي. . فالمجتمع العربي مازال يحتفظ ب" القبيلة"- كمكون أساسي فيه.(29)

إن الخوض في غمار إشكالية الفضاء العمومي والتلفزيون في الدول العربية يتطلب البحث عن العلاقة الكامنة بين تزايد عدد القنوات التلفزيونية، واتساع رقعة حرية التعبير في الوطن العربي التي زادت في رفع عدد الانتقادات الموجهة للسلطات الحاكمة في الدول العربية بعد تراجع الرقابة و منع الكلمة والصورة

واحتباسها. هذه العلاقة يمكن أن تكشف عنها أكثر الأسئلة التالية: هل أن النقاش الذي اتسعت دائرته في القنوات التلفزيونية أصبح يملك طابعا عموميا شفافا؟ وهل يفتح المجال للجدل والمناظرة التي تعطي بعدا سياسيا لمشاركة الناس فيه؟ وهل يشمل قضايا ذات شأن عام ويؤمن أسس المواطنة؟

قبل الإجابة على هذه الأسئلة يجدر بنا التعامل الحذر مع عاملين أساسيين يشكلان إرھاصا جادا في تطور القنوات التلفزيونية العربية ويرزحان بتقلهما على البعد الجمالي والثقافي.

1 - إن حداثة الظاهرة التلفزيونية في المجتمع العربي، والطبيعة التجنيدية والدعائية التي كان يقوم بها التلفزيون، وربما مازال، واستعانتة بفريق بشري لا يملك جله خلفية مهنية تلفزيونية لأنه التحق بالعمل التلفزيوني من قطاع التجارة والتعليم الابتدائي والثانوي، والصحافة المكتوبة والإذاعة دون أن يتمكن من امتلاك ناصية اللغة السمعية- البصرية. كل هذه العوامل جعلت القنوات التلفزيونية العربية عبارة عن إذاعات مصورة، بدرجات مختلفة (30) . هذا ما تؤكد " تخمة" البرامج الحوارية المتناسخة والمكررة في القناة التلفزيونية الواحدة.

يقول اعتماد القنوات التلفزيونية العربية على الريبورتاج كنوع صحفي يبرز المقدر على التمايز والانفراد الذي يوفق بين المعطيات الموضوعية (عناصر الحدث) والبعد الذاتي الفني (الرؤية الذاتية لتفصيل الحدث وجزئياته). فالقنوات الثرية التي تملك مراسلين صحفيين أو مبعوثين خواص، لا توجههم وفق تصور ومخطط عمل يبرر تواجدهم في عين المكان، بل تكتفي بمحاولة التحري في صحة المعلومات المتوفرة في غرفة الأخبار والتي قدمتها وكالات الأنباء الأجنبية، وتحديدا وكالة الأنباء الفرنسية ووكالة رويترز البريطانية، ثم تحيل الكلمة للضيف الذي يعلق على الحدث. وهكذا سقطت القنوات الفضائية العربية فيما سقطت فيه الصحافة العربية التجنيدية التي كانت تقدم للقارئ تعليقا وأراء وأحكاما على أحداث لا يعرف عنها الكثير ولا يملك معطيات عنها! فالعمل وفق هذا المنطق العملي لا يخرج نتاج ما تقدمه القنوات الفضائية عن حلقة (الدورة الدائرية للأخبار والمعلومات) التي تحدثنا عنها أعلاه

2- لعل نقطة ضعف القنوات التلفزيونية الأكثر ظهورا يتمثل في البرمجة. إن الشيء الإيجابي الناجم عن انفتاح القنوات التلفزيونية الأوروبية على القطاع الخاص، والذي يؤكد عليه المختصون يتمثل في تزايد أهمية البرمجة، وعلو شأن مديري البرمجة في القنوات التلفزيونية الغربية واتساع شهرتهم، حيث أن الطلب عليهم أصبح يضاهي الطلب على كبار نجوم الشاشة (31). إن المنافسة بين القنوات التلفزيونية في الدول الأوروبية دفعت لاستثمار المال والجهود في مجال البرمجة: إنتاج برامج تتميز بخصوصيتها وانفرادها في الشكل والمضمون والأهداف ، بالنظر إلى بقية البرامج و شريحة الجمهور التي تستهدفها. يتضح من خلال التجربة التلفزيونية العربية أن المنافسة بين القنوات التلفزيونية العربية شجعت الارتجال

والفوضى. فبعض القنوات التلفزيونية تصرف الملايين من الدولارات لإنتاج برنامج تلفزيوني وتطلب وتزمر له في إطار حملة إعلانية، لكنها تكتفي ببث بعض حلقاته فقط ويختفي للأبد بدون سبب ظاهر. وتبث برامج أخرى في أوقات غير مدروسة، ويعاد بثها كيفما تشاء النزوات. وتوقف بث برنامج معين لسبب إخباري طارئ بدون أدنى اعتذار للجمهور، ولا يعاد بثه من جديد. وقيام مذيع واحد لبرنامجين أو أكثر متشابهين إلى حد التطابق في الشكل والمحتوى، و لا يختلفان سوى المسمى! وتقتبس بعض القنوات التلفزيونية برامج قنوات أخرى شكلا ومضمونا وتسمية! لعل هذه الحقيقة جعلت الكثير من القنوات تحجم عن طبع دليلها الأسبوعي والشهري مثلما تفعل القنوات التلفزيونية الأجنبية.

حقيقة إن الطموح للوصول إلى أكبر عدد من الجمهور العربي في القارات الأربع بتوقيتاتها المتباعدة جدا لا يبسر عمل المبرمجين في الفضائيات العربية، ويعسر كل نشاط يسعى لمعرفة ملامح الجمهور الذي يتوجه إليه هذا البرنامج التلفزيوني أو ذلك. لكن العالم تطور وكلفة برنامج تلفزيوني أصبح أكثر غلاءً فمن غير المعقول ألا يرفقه جهد لمعرفة صداه: هل حقق هدفه أم لا؟ هل اسهم في رفع عدد مشاهدي القناة أم لا؟ وما يجب القيام به لرفع شعبية هذا البرنامج التلفزيوني أو ذلك؟ سنحاول أن نرصد إشكالية الفضاء العمومي والتلفزيون في الدول العربية من خلال الافتراضات التالية:
الافتراض الأول:

إن القنوات التلفزيونية العربية تطورت في ظل الأزمات وبفعل التأثير الخارجي أكثر من دوافع الداخل (32) فظهر أول قناة فضائية عربية (MBC) التي بدأت البث من لندن في اتجاه شعوب العالم العربيتم بعد حرب الخليج الثانية.

ربما يصرف البعض النظر عن العوامل التي أدت إلى انفتاح الفضاء السمعي-البصري العربي، ويقتنعون بما هو موجود من انفتاح إعلامي في المجال السمعي- البصري ليسألوا مضمونه وتأثيره على الأصعدة السياسية والثقافية والاجتماعية. إن كل محاولة لاستقراء إسهام القنوات التلفزيونية العربية في الحقل السياسي والاجتماعي تكون، في تقديرنا، ناقصة ما لم تدرك المنطق الذي أنشأها والعوامل التي دفعتهما للوجود.

إن معاينة التجربة المكتسبة في بعض الدول العربية تثبت ، بشكل ملفت للنظر ، أن القنوات التلفزيونية لم ترتق، لأسباب تاريخية مرتبطة بظروف تأسيسها وتطورها وتوظيفها، لتكون أداة للتغيير والتجديد، بل كانت دائما انعكاسا لهذا التغيير. فالتجربة الجزائرية القصيرة التي دامت من 1989- 1991 والتي يمكن أن نضعها بين قوسين في تاريخ التلفزيون الجزائري تبين أن هذا الأخير لم يكن الأداة الفاعلة في التغييرات الطفيفة التي حدثت على صعيد حرية الكلمة، بل كان امتدادا للديناميكية السياسية التي حدثت في الجزائر بفعل المواجهة السياسية العنيفة الفعلية أو المفتعلة التي جرت في الشارع سنة 1989. بمعنى أن القنوات التلفزيونية مهما كان وزنها في المجتمع لا تشكل مركز ضغط يؤدي إلى إحداث ديناميكية في المجتمع.

الافتراض الثاني:

إن تزايد عدد القنوات التلفزيونية العربية الذي بلغ 150 قناة لا يندرج ضمن الرغبة الصادقة في تلبية حق المواطن العربي في الإعلام والإطلاع، ولا يخضع لمنطق إقامة تعددية إعلامية على غرار التعددية السياسية التي أطلق عليها البعض تسمية تعددية الواجهة، بل أملت رغبة الأنظمة العربية في الظهور بمظهر الدولة الحديثة المتفتحة على التقنية وعلى العالم الخارجي والتباهي به، ولعل هذه الحقيقة هي التي كانت وراء ميلاد بعض المصطلحات، مثل : القناة الفضائية- فضائية، وقناة الأرضية- الفضائية! التي يستخدمها بعض المهنيين العرب للتوضيح الفرق بين القنوات التي أنشئت للوصول إلى قطاع واسع من المشاهدين العرب المتناثرين في الكرة الأرضية فاضطرت للبحث الفضائي، والقناة الأرضية التي تبث لجمهور وطني في البداية ثم أصبحت تبث فضائيا.

لكن يبدو أن حب الظهور والتباهي، المذكوران أعلاه، يظان قاصرين عن تلخيص العوامل المعقدة التي كانت وراء تزايد عدد القنوات التلفزيونية في الدول العربية. فالرؤساء الخاص اكتشف، ربما باندهاش، أن القطاع السمعي- البصري، والتلفزيون تحديدا يمكن أن يكون مربحا على الصعيد التجاري. وهذا مشجع للاستثمار فيه. ربما هذا الإكتشاف هو الذي يفسر جزئيا تزايد القنوات ذات الطابع الترفيهي (القنوات المتخصصة في الموسيقى والغناء والرياضة، وغيرها) التي تسعى لتحقيق الربح أكثر من نشر القيم السياسية التي تعمل على حماية الإنسان وصيانة حقوقه الأساسية.

كما عملت الدول العربية، من جهتها، على رفع عدد قنواتها التلفزيونية وذلك لاعتقاد كلاسيكي بأنها ستظل "صانئة" للهوية والثقافة الوطنية ضد هجوم القنوات التلفزيونية الأجنبية، وحتى العربية. وتبقى " الحارس الأمين" للوحدة الوطنية من المعارضة السياسية التي بدأت تخاطب شعوبها من القنوات التلفزيونية المنافسة سواء كانت أجنبية أو عربية. هذا إضافة إلى أن بعض الدول العربية لجأت إلى السماء لحل خلافاتها في الأرض. فبدأت نشن هجوما على بعضها انطلاقا من قنواتها التلفزيونية ضمن منطق توازن " الرعب الإعلامي" على حد قول مذيع قناة عربية (33)

هذه الخلفية تبدو ضرورية لإدراك حجم إسهام القنوات التلفزيونية في مرامي النقاش الذي تنشئه.

الافتراض الثالث:

يعتقد بعض المتقنين العرب بأن الفضائيات العربية عملت على خلق نوعا من الديمقراطية الوهمية (34) كتعويض عن الديمقراطية الفعلية في المجتمعات العربية. يطرح هذا الاعتقاد جانبيين أساسيين: الجانب الأول يقر بعدم وجود ديمقراطية فعلية في المجتمعات العربية، والجانب الثاني، يقر بوجود الديمقراطية البديلة التي تنتجها بعض القنوات التلفزيونية العربية.

أن ما تقدمه الشاشة الصغيرة العربية لا يعتبر ديمقراطية، لسبب بسيط أن الديمقراطية ليست شعارا أو قولاً، إنها فعل مؤطر بترسانة قانونية تعمل أجهزة مستقلة على تطبيقها في الواقع اليومي، وتتبع من مؤسسات منتخبة تحترم الرأي والرأي الآخر.

لإعادة تصويب الاعتقاد المذكور وتصحيحه يمكن القول أن بعض الفضائيات العربية تتيح للمشاهد هامشا من حرية التعبير والرأي أكثر مما يتمتع به في حياته اليومية بعيدا عن كاميرا هذه الفضائيات. بالفعل، يلاحظ أنحرية التعبير قاصرة في العديد من المجتمعات العربية ، رغم الخطاب السياسي العربي المهلل للديمقراطية والحرية. فالمواطنون في العديد من الدول العربية لم يبق بيدهم سوى الشارع، واستخدام العنف للتعبير عن ذاتهم وعن همومهم. ويخشى أن الجيل القادم يفقد أبجديات فن الحديث والحوار والمناقشة لأنه تربي في ظل القهر والعنف! إن إصدار صحيفة في بعض الدول العربية في الألفية الثالثة يعد أمرا اصعب من إصدارها في مطلع القرن الماضي الذي وصف فيه عبد الرحمن الكواكبي في مؤلفه: "طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد" حالة أوضاع الدول العربية والإسلامية!

إذا كانت أوضاع الدول العربية متباينة في حجم الحريات وفي هامش النقد الذي يتمتع به سكانها، فالأمر ذاته ينطبق على القنوات التلفزيونية حيث أنها تتمتع بهامش متباين من الحرية. ففي المغرب تستفيد القناة الأرضية التي تبث فضائيا من بعض الحريات في تناول المواضيع الداخلية، لكنها تمنع من تناول القضايا التي تمس بعض الدول العربية باعتبارها قناة حكومية (35)، بينما تتمتع القنوات التلفزيونية المصرية التابعة للقطاع العام بهامش من الحرية في نقد الدول الأجنبية، خاصة تلك التي لا ترضى عنها مصر، لكن بالمقابل تلزمها بعدم نقد الشأن الداخلي. والدليل أنه لم يسمح للقناة الفضائية المصرية بفتح نقاش حول ختان الإناث، على سبيل المثال، إلا بعد أن بثت قناة CNN شريطا مصورا عن الموضوع أقام الدنيا ولم يقعدا (36) وربما هذا الأمر ينطبق على جل الفضائيات العربية التي تتبارى في نقد هذه الدولة أو تلك أو تتعمد صيغة الجمع والتعميم لنقد الدول العربية لكنها تغط الطرف عن الأمور الداخلية للدولة التي تملكها أو تمويلها أو تبث من أراضيها**

الافتراض الرابع:

منذ حملة نابوليون بوناپرت على مصر في 1798، والمسألة السياسية تطغى على تفكير النخب الاجتماعية والثقافية وحتى الدينية، وذلك لأسباب موضوعية في أغلبها. لكن القنوات التلفزيونية العربية تجاوزت هذا الحد إلى درجة أن القنوات المتخصصة في الأخبار أصبحت عبارة عن قنوات سياسية بامتياز؛ بمعنى أنها تعكف على إبراز الأخبار والبرامج السياسية دون غيرها من الأخبار. إن بعض القنوات التلفزيونية، مثل القناة الجزائرية تسعى إلى إبعاد المواضيع السياسية من شبكة برامجها واستبعاد كل نقاش وجدل بين الآراء المتعارضة في زمن يقال عنه أنه تعددي وديمقراطي، والاكتفاء بنقل الخطاب الرسمي والتلهيل لرجاحته وصوابه وعبقريته عبر جملة من التعاليق المؤيدة، و لا تتذكر، لبعض الوقت، وجود قوى "معارضة" إلا كل خمس سنوات، بمناسبة الانتخابات فقط. وبالمقابل قامت القنوات التلفزيونية الأخرى بمضاعفة عدد البرامج السياسية المختلفة إلى حد أن بعض المشاهدين أصيبوا بالتخمة أو الإشباع منها. ففي هذا الإطار تعمدت القناة المصرية الثالثة بث تسعة برامج سياسية جديدة (37). وتعترف معدة برنامج " صباح الخير يا مصر " الصحافية يسمين عبدالله بأن 80% من هذا البرنامج

مخصص للمواضيع السياسية، يتحدث فيها ثمانية محللين من الذين لا يشكلون إخراجاً للبرنامج لأنهم يعرفون حدودهم. (38). ورغم هذا الفائض في البرامج السياسية إلا أن المعارضة السياسية المصرية وممثليها ليس لهم حق الظهور في التلفزيون المصري! فالغاية من كل هذه التخمّة في البرامج السياسية في بعض القنوات التلفزيونية، خاصة التابعة للقطاع العام، ليس تمكين المواطن من حقه في الإعلام والتعبير، بل محاولة حجز الوقت الذي يصرفه في مشاهدة برامج بعض القنوات التلفزيونية المنافسة، وإعادة إنتاج الخطاب الرسمي بشكل مطنّب، وبصيغ مختلفة.

الافتراض الرابع:

ينظر بعض المشاهدين لبعض القنوات التلفزيونية على أساس أنها أحزاب سياسية، ويحاسبونها لعجزها عن تحقيق ما أخفقت هذه الأحزاب في تجسيده. وقد "انتشت" بعض القنوات التلفزيونية بهذه النظرة فسعت لمجاراة الشارع وتلاطفت مع عواطفه. لقد كان الصحافيون يقدمون ما يجري في العراق أثناء غزو الولايات المتحدة الأمريكية له بشكل مخالف للواقع من أجل إرضاء الشارع فقط. فبعض البرامج السياسية وما يتخللها من نقاش تندرج ضمن هذا الإرضاء.

ربما ليست كل القنوات تسعى إلى هذه الترضية، لكن تزايد البرامج السياسية في الفضائيات التالية: الجزيرة أبو ظبي، ANN، المستقلة، والعربية، و Nil News، و MBC، و Future، والمستقلة و Art يثير تساؤل عن انعكاسات هذا النقاش التلفزيوني المستمر على الحياة العامة، وعلى ترقية النقاش العام والحيوي بين أطراف المجتمع حول القضايا العامة؟ أي مدى إسهام هذه البرامج في تشكيل الفضاء العمومي في الدول العربية؟ إن الإجابة على هذين السؤالين تستدعي استحضار الحقائق التالية: أ- قد يسهم الاتصال والنقاش، إلى حد ما، في شحذ الحجاج واستعمال العقل. لكن في ظل غياب الفعل السياسي الذي يغذي التفكير العقلاني يظل المواطن مجرد مشاهد. قد يتفق الكثير من المهتمين بأوضاع الدول العربية مع هذه الملاحظة التي صاغها الصحافي الأمريكي توماس فريدمان: (وعلى امتداد العالم العربي كله، لا يزال يسود ضعف مريع في مفهوم ماهية الدولة والمواطنة. وكما تقل مؤسسات ومنظمات المجتمع المدني...) وكما هي ضعيفة التجربة التاريخية في مجال الصحافة الحرة والسوق الحرة. كما لا توجد تقاليد برلمانية حقيقية يعول عليها عندما تتهاجر جدران الأنظمة القديمة) (39)

ب- حقيقة لقد تطرقت الفضائيات العربية إلى الكثير من القضايا التي كانت تعتبر في السابق من الطابوهات: شرعية السلطة، الجنس، الدين، المعارضة، لكن سيكون لنقاش التلفزيوني عائداً و حاملاً قيم المواطنة إذا طرح وفق الرهانات السياسية وليس حسب النزعات السياسيوية المؤقتة.

ج- تكمن مقدرة التلفزيون على تفعيل النقاش الاجتماعي إذا استطاع أن يقيم الصلة بين الحياة السياسية الوطنية والاهتمامات الاجتماعية الشعبية. لكن كيف يتسنى ذلك في الدولة العربية؟ إن مفهوم الأخبار الوطنية غائب في التلفزيونات العربية. فالقنوات التلفزيونية التابعة للقطاع العام تحشو هذا

المفهوم بكل الأحداث ذات الطابع البروتوكولي والتشرفي الخالية من القيم الإخبارية، بينما تتجه الفضائيات ذات النزعة الدولية رأساً إلى الأخبار الدولية، ولا تلتفت أصلاً إلى الخبر المحلي أو الوطني. د. إن حالة التشعب من البرامج السياسية المستسخة في القنوات التلفزيونية العربية قد أدت بالجمهور إلى إدارة ظهره لها. حقيقة لا توجد دراسات أمبريقية تؤكد هذه الحقيقة، بل توجد جملة من المؤشرات الميدانية، منها ما لاحظته المهنيون من توجه المشاهدين في الدار البيضاء المغربية، والقاهرة وحتى أبو ظبي إلى مشاهدة القنوات التلفزيونية المتخصصة في الموسيقى والسينما (40). والمشاركة الجماهيرية الواسعة التي تعدت الأربعين مليون في تصفيات برنامج سوبر ستار، وستار أكاديمي اللذان بثتهما القنوات اللبنانية: LBC، والمستقبل.

هـ. يعتقد البعض أن النقاش السياسي قد أضفى على العديد من القنوات التلفزيونية العربية طابعاً نخبياً نظراً لطبيعة موضوع النقاش التجريدي، ولطبيعة المشاركين فيه من صحافيين، وأساتذة جامعيين، وسياسيين.. لكن نرى أن هامش النقاش يضيق بمرور الأيام، للمواضيع المجتررة والشخصيات ذاتها التي تنتقل من قناة تلفزيونية إلى أخرى: إنهم الأشخاص ذاتهم الذين يتداولون على الكتابة في الصحف التالية: الاتحاد، والبيان، والخليج، والشرق الأوسط، والقدس العربي، والحياة، والراية، والأهرام، والنهار، يتناولون المواضيع ذاتها التي يعاد نشرها في الصحف المختلفة وتبث في القنوات التلفزيونية. إن بعض هؤلاء مستعد للحديث عن كل المواضيع، من تنظيم الأسرة، إلى وضع المرأة العربية، إلى النظام السياسي الأمريكي، إلى الوضع في العراق ولبنان، إلى تكنولوجيا الاتصال والمعلومات، إلى ارتفاع قيمة البيورو وتأثيره على الاقتصاد العالمي ***

قد يحتج البعض على هذا الرأي متحججين ببعض البرامج الحوارية الجيدة التي تتضمن قدراً كبيراً من جدة الطرح وشدة اللهجة الناقدة. إن نقائص مثل هذه البرامج لا يكمن في نخب الوطن العربي التي نمت في كنف الحزب الواحد أو المعارضة ونشأت إما في بيئة ثقافة الاحتجاج أو في ظل افتقاد التكوين الثقافي والفلسفي والمعرفي الذي يحول دون تقبل الرأي الآخر. إن نقائص هذه البرامج تكمن، أساساً، في أجندتها التي لا تسعى إلى إبراز الاتجاه المعاكس من أجل إثراء تعددية الفكر والرأي، بل تعمل على تصفية الاتجاه المغاير وتثبيت الرأي الواحد، وتقديمه على أساس أنه الأصلح (41)

و- قد نتساءل عن غياب الحديث عن الخدمة العمومية في القنوات التلفزيونية العربية أمام تصاعد النقاش حول الديمقراطية. فأمام احتكار الأحزاب الحاكمة أو القوى السياسية المتواجدة في السلطة لوسائل الإعلام المختلفة، وانصراف القنوات الخاصة لتحقيق هدفها الأساسي المتمثل في تحقيق الربح الذي سَلَع المتعة والفرجة. فلين حق المعارضة السياسية والتنظيمات المدنية من التعبير عن ذاتها وانشغالاتها في القنوات التلفزيونية؟ وهل يمكن الحديث عن فضاء عمومي في ظل غياب الخدمة العمومية التي تهتم أساساً بالشأن العام في مجال الإعلام؟

الافتراض الخامس:

لا يمكن التطرق إلى دور الفضائيات العربية في تحريك الفضاء العمومي السياسي بدون النظر إلى الاختلاف بين جمهور التلفزيون في دول المشرق العربي والخليج و المغرب العربي، حيث يلاحظ أن هذا الأخير أصبح يستقبل ثلاث باقات رقمية فرنسية ليس بالاشترك بل بقرصنة البطاقات بكلفة زهيدة لا تتجاوز في كثير من الأحيان 6 دولارات. ويفضل هذا الجمهور متابعة الأخبار والأفلام والبرورتاجات في القنوات الفرنسية عن متابعة برامج قنواتهم التلفزيونية الوطنية و العربية الأخرى. هذا الحقيقة لا تؤكد نوعا من التفاخر والتباهي بامتلاك لغة أجنبية بقدر ما يعبر عن رغبة في الانفتاح على الثقافة والعلم والمعرفة، وعلى ما يجري في العالم. إذا كان هذا الجمهور قد نفر من التكرار الممل للأخبار وبرامج العديد من الفضائيات العربية، فإنه انغمس في النقاش والسياق الثقافي والفرنسي، وأصبح أكثر تأهيلا لمشاركة سكان الضفة الأخرى هواجسهم ومخاوفهم.

هذه الحقيقة، ربما تقودنا إلى النظر إلى مسألة الفضاء العمومي العربي بصيغة الجمع. أي فضاءات عمومية محددة على المستوى الوطني، و اللغوي، وعلى مستوى الأطر التي يتشكل فيها: المساجد، والمنتديات الثقافية، والمنتديات الإلكترونية.

يمكن للانترنت في الوطن العربي أن تحدث تقاربا بين المواطنين وتتيح إمكانية النقاش والتواصل المباشر فيما بينهم، باعتبار أن ذلك من شأنه أن يخلق مجالا عموميا في المستقبل. ف شبكة الانترنت أداة ديمقراطية، غير أن الديمقراطية مسألة مجتمع بأكمله، ووجود مجال عمومي " افتراضي " بين الأفراد لا يمكن أن يكون بديلا لمجال عمومي واسع شعبي "فعلي". فالمجال العمومي يستلزم بالضرورة الانخراط في الحياة اليومية والجماعية و لا يمكن أن يتشكل دون قاعدة ثقافية مشتركة. هذا إضافة إلى أن تحول الانترنت في الدول العربية إلى فضاء عمومي يصطدم بالصعوبتين، وهما:

إن الاستفادة من خدمات الانترنت تظل محدودة، نظرا لضعف انتشار شبكة الانترنت في بعض الدول العربية الفقيرة من جهة، وللمقابل المالي الذي يقدمه كل مستفيد والذي يكلف، كثيرا، بعض الشرائح الاجتماعية في العديد من الدول العربية. وبهذا تبدو الانترنت وسيلة أكثر نخبوية من جهاز التلفزيون في الدول العربية.

- بالإضافة إلى الأمية المنتشرة في الدول العربية والتي تحول دون استخدام شبكة الانترنت، فإن الدراسات الميدانية القليلة التي أجريت في بعض الدول العربية تؤكد أن الشباب يستخدم الانترنت ليس لمناقشة القضايا العامة ذات العلاقة بالشأن العام، واستخدام الحجة والمحااجة العقلانية، بل تستخدم الانترنت لتبادل الرسائل الشخصية، وللإطلاع على الأخبار، وللدردشة تسجيلية للوقت وإقامة علاقات مع الجنس الآخر (42)، أو للبحث عن سبل الهجرة نحو الشمال.

الافتراض السادس:

تعد القاعدة الثقافية، فعلا، شرطا أساسيا لقيام الفضاء العموميوتطور ه، لذا لا يمكن نكران البعد الثقافي للفضائيات العربية. لكن هل يمكن لمسلسلات والبرامج الثقافية التي تبثها هذه الفضائيات، رغم بساطتها

وجنوحها نحو التسلية، أن تمتن هذه القاعدة؟ أن هذا السؤال يملك أهمية استثنائية ويدفعنا للتفكير في المنظومة القيمية التي تتناقلها المسلسلات التي تعد في مجملها مصرية، رغم أن مذيوعات القنوات التلفزيونية يصرن على تقديمها بلقها مسلسلات عربية! رغم الطابع التجاري الفج الذي يميز الكثير منها فإن وظيفة خطاب المسلسلات المصرية، التي بينها وزير الإعلام المصري صفوت الشريف، لا ترمي إلى هذا المسعى، إذ يؤكد : (بلن هدفنا من مضاعفة المسلسلات هو تنشيط الذاكرة الجماعية للأمة) (المصرية)، والتذكير بتاريخها وقيمها المشتركة. (43)

المراجع والإحالات:

- * فضل الباحث ترجمة مفهوم Public بالعمومي بدل العام كما شاع في الاستعمال اليومي في الصحافة، وذلك لأن مصطلح لعام يبدو مرادف للمصطلح الفرنسي Général. إننا نعتقد أن مصطلح العمومي هو الأقرب للدقة لأنه يوحي بأنه ما يناقض الخاص Privé
- ** : يشبه هذا الأمر النكتة التالية التي كانت تقال على الاتحاد السوفيتي سابقا ، حيث يذكر أن طالبا أمريكيا التقى بنظيره الروسي فخطبه قائلا : إننا ننعم بالحرية في بلدنا خلافا لوضعكم. أركم تعيشون في ظل الديكتاتورية. فرد ليه الشاب الروسي كيف تتعمون بهذه الحرية ؟ فرد عليه الأمريكي قائلا: في بلدي يمكن لأي أمريكي أن يذهب إلى البيت الأبيض ويصرخ بأعلى صوته: ليسقط ريغان ، فلا يسأله أحد ولا يزعه أحد. ابتسم الطالب الروسي قائلا: بإمكان أي روسي أن يقف في الساحة الحمراء ويصرخ بأعلى صوته يسقط ريغان ولا يسأله أحد ولا يزعه أي شخص! فبعض القنوات التلفزيونية العربية تصرخ بما يمكن أن يصرخ به الروسي في الساحة المذكورة.
- *** : يمكن أن نشير في هذا الصدد إلى ما ذكره الأستاذ نبيل الديجاني الذي أكد أن أحد مقديمي برنامج تلفزيوني في إحدى الفضائيات العربية قد أندش من اعتداري على تلبية طلبه والمتمثل في المشاركة في حديث عن الباكستان لكوني أستاذ جامعي مختص في الإعلام! أنظر الحلقة النقاشية حول الفضائيات العربية، المنشور في مجلة المستقبل الصادرة في شهر أب- أغسطس 2004
- 1-HABERMAS Jürgen, 1978, L'Espace public. Archéologie de la publicité comme dimension constitutive de la société bourgeoise, éditions Payot, Paris
- 2- cite par Éric George :Du concept d'espace public à celui de relations publiques généralisées, COMPOSITE v99.1
- 3-Pour une nouvelle appréhension théorique de l'espace public
- Texte tiré de l'ouvrage collectif « L'Europe qui se construit » (DIR E. Dacheux), Presses Universitaires de st etienne, 2003 :23.
- 4-L'espace public, Encyclopedie Agora, <http://www.agora.com>
- 5- Pour une nouvelle appréhension théorique de l'espace public, op cite
- 6-Idem
- 7-Idem
- Idem8
- 9-Marc LITS :Le déplacement médiatique du débat politique, 01 juin 2003, http://archivesic.ccsd.cnrs.fr/documents/archives0/00/00/06/29/sic_00000629_02/sic_00000629.html
- 10- Pour une nouvelle appréhension théorique de l'espace public, op cite
- 11- Idem
- 12- Idem
- 13- Idem
- 14-Levy Pierre. World Philosophie. Odile Jacob 2000, p82
- 15-cite par Eric Dacheux : L'espace public, la théorie confrontée aux pratiques militantes, op cite
- 16- Idem
- 17- Pour une nouvelle appréhension théorique de l'espace public, op cite

- 18- Jurgan Habermas, op cite p 35
- 19- Éric George op cite
- 20- Ibid
- 21- Ibid
- 22- Ibid
- 23- cite par Éric George, op cite
- 24- Eric dacheux, Eric Dacheux :L'espace public : la théorie confrontée aux pratiques militantes, édition CNRS décembre 2000.
- 25- Ignacio Ramonet : La tyrannie de la communication, falio actuel, 2002, P81 , p 73
- 26- Idem
- 27- Jérôme JAMIN Du bon langage en politique, démocratie, télévision et représentation politique, revue politique – numéro juin 2004

28- هذا التعريف وضعته اللجنة الاقتصادية والاجتماعية للاتحاد الأوروبي سنة 1999
Eric Dacheux , op cite نقلا عن:

29- محمد عابد الجابري: المجتمع المدني: المعنى والمفهوم- الاتحاد 1-3-2005

30- هذا ليس حكما بل حقيقة يؤكد الكثر من المهنيين الذين تعلموا ابجديات العمل التلفزيوني وتحكموا في ثقافة الصورة - أنظر الحلقة النقاشية حول الفضائيات العربية وقضايا الأمة، التي نشرتها مجلة المستقبل العربي في عددها الصادر في آب- أغسطس 2004.

31- نصر الدين لعياضي: التلفزيون، البرمجة، المشاهدة: آراء ورؤى، وزارة الثقافة السورية، 1997، ص 21

32- نصر الدين لعياضي: وسائل الإعلام والمجتمع: ظلال وأضواء، دار الكتاب الجامعي: ظلال وأضواء، الإمارات 2004 ، ص 149

33- المستقبل العربي: حلقة نقاشية حول الفضائيات العربية وقضايا الأمة، عدد آب- أغسطس 2004

34- المستقبل العربي - الحلقة النقاشية ذاتها.

35- المصدر ذاته.

36- المصدر ذاته

37- فرنك مرميه (تحت إشراف): الفضاء العربي (الفضائيات والانترنت والإعلان والنشر) ترجمة فرديك معنوق، قدمس للنشر والتوزيع 2003، ص 31

38- المستقبل العربي، الحلقة النقاشية ذاتها.

39- طوماس فريدمان: عندما تطير الجمال، صحيفة الاتحاد الإماراتية، الاثنين 21-2-2005

40- المستقبل العربي، الحلقة النقاشية ذاتها.

41- نصر الدين لعياضي، المرجع نفسه، ص 73

42- نصر الدين لعياضي: الشباب الإماراتي و الانترنت: دراسة ميدانية لعادات استخدام الانترنت و تأثيرها على السلوك الثقافي"، مداخلة غير منشورة قدمت إلى الندوة العلمية التي نظمتها جامعة الشارقة، بالإمارات، تحت عنوان "ثقافة الانترنت وأثرها على الشباب، الشارقة يومي 10 و 11- 2004-3

43- DINA EL KHAWAGA & ALAIN ROUSSILON : UN BON USAGE DES FEUILLETONS TELEVISES
EGYPTIENS, LE MONDE DIPLOMATIQUE, MAI 1